

الخطاب الشعري الصوفي " الشعر المغاربي نموذجاً"

الإسم : بختة تاحي

المشرف: د.فاطمة عبد الرحمن

جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف-الجزائر

ملخص:

العلم وسيلة لإدراك المعرفة والأدب هو ذلك الانعكاس لشعورنا الخاص فقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان ليعبده ويسبحه على نعمه الجمّة وعطاءه الكثير ، وخلق فيها الخير والشر والملذات والشهوات ، والسبيل الصحيح للتوبة والغفران ومن هذه السبل : التصوف أو الزهد في الدنيا وهو الاحتباس عن الملذات والشهوات في الدنيا والانصراف إلى طاعة الله عز وجل شأنه.

الكلمات المفتاحية: التصوف؛ الشعر الصوفي؛ الشعر المغاربي

يعد التصوف ظاهرة نفسية واجتماعية لا تحيز بصقع محدد ، ولا تختص بأمة بعينها وكان لها أثر بارز في الشعر العربي ولا سيما في الشعر المغربي منه خاصة ، فقد كان مرتعا خصبا لهذه الظاهرة التي كانت في بداية أمرها إشعاعا روحيا يصدر عن نفوس ظاهرة غلبها الوجد وتملكها الشوق للتخلص من ربة المادة ، والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون(1) ومن ثمة فقد كان الخطاب الصوفي عامة والشعري منه بخاصة.

فالتجربة الصوفية العربية المعاصرة كان لها دور كبير في اجترار ما كان يسير على منوال القدامى والخروج عن المألوف ، فهي تجربة لغوية فريدة من نوعها ، ذلك لأن اللغة تمد الدين بوصال وثيق(2) ، وهي أساس علاقة المخلوق بخالقه والادميين فيما بينهم.

وستتطرق في بحثنا هذا إلى مفهوم الصوفية وعلاقتها بالخطاب والشعر (الشعر المغاربي).

1- مفهوم الصوفية :

(أ)- لغة: (الأصل لفظ التصوف)

تعددت معاني لفظ الصوفية من جهة الاشتقاقات المتنوعة ، ولعل أولى هذه الاشتقاقات يتصل بلبس الصوف ، والذي هو علامة على الفقر ، أو الزهد في الحياة ومتاعها الزائف ، وهناك اشتقاق ثان يربط لفظ التصوف في اللغة بالصفاء أي الطهارة الروحية وهناك معنى ثالث للصوفية يرجعه البعض إلى اللفظ الإغريقي الأصل ، وهو " سوفيا " ، ويعني الحكمة.

1-الأصل الأول: وقد رأينا أنه ينسب الكلمة إلى الصوف : أي أن كلمة " تصوف " مصدر للفعل " تصوف " للدلالة على لبس الصوف ، وهذا يؤكد الصلة بين التصوف والزهد في معنهما العام فقد كان الصوف رمزا لحياة الزهد ، ومظهرا للتقشف ، كما أنه لباس الأنبياء -عليهم السلام- فقد روى عن الرسول ﷺ صلى الله عليه وسلم أنه خرج ذات مرة وهو يلبس " جبة من صوف من جباب الروم " ، وهذا المعنى ذكره صاحب كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف حيث يقول : " إنما سموا صوفية للبسهم الصوف " ، كما أكدته " زكي مبارك " في كتابه " التصوف الاسلامي في الأدب

والأخلاق ، حيث يرى أن نسبة الصوفي إلى الصوف هي أصح الفروض ، ويسوق لهذا الغرض شواهد كثيرة جدا ، منها ما ذكره الياضي أن لباس الصوف كان غالبا على المتقدمين من سلف الصوفية ، لأنه أقرب إلى التواضع والزهد ولكونه لباس الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام- كما أنه يدل على الذل (3) ، وسوء الحال وفي هذا المجال نذكر قول الشاعر " أبو تمام ":

*كَانُوا بُرُودَ زَمَانِهِمْ فَتَصَدَّعُوا فَكَأَنَّمَا لَبَسَ الزَّمَانُ الصُّوفَا

وقد عاب الصوفية الصادقون أن يكون الصوف مظهرا ، وستارا تتقنع به القلوب.

2-الأصل الثاني: هناك معنى ثان يربط لفظ التصوف في اللغة العربية بالصفاء ، وذلك عندما ينقطع الصوفي عن الدنيا ، ويظهر نفسه وأفعاله من جميع الشهوات والنزوات حتى يصل إلى درجة الصفاء ، يقول " الكلاباذي " في باب (قولهم في الصوفية لما سميت الصوفية صوفية).

إنما سميت الصوفية ، صوفية لصفاء أسرارها ، وقال " بشر بن الحارث ": الصوفي من صفا قلبه الله ، وقال بعضهم : الصوفي من صفت لله معاملته ، فصفت له من الله عز وجل كرامته ، وجاء في " اللمع للسراج الطوسي " كذلك أن الصوفي : " مأخوذة من الصفاء وهو القيام لله عز وجل في كل وقت بشرط الوفاء ".

قال أبو الفتح البستي:

تَنَازَعَ النَّاسُ فِي الصُّوفِ وَاخْتَلَفُوا فِيهِ وَظَنُّوهُ مُشْتَقًّا مِنَ الصُّوفِ
وَلَسْتُ أَنْحِلُ هَذَا الْأِسْمَ غَيْرَ فَتَى صَافِي فَصُوفِي حَتَّى لُقِبَ الصُّوفِي

3-الأصل الثالث :

يرى بعض المستشرقين ، وكذا بعض الباحثين العرب أن كلمة الصوفي يرجع اشتقاقها اللغوي إلى اللفظ الاغريقي الأصل (سوفيا) وهي (الحكمة) وأما الصوفية فهم (الحكماء) وإلى هذا المعنى يذهب البيروني حيث يرى أن الصوفية مأخوذة من الكلمة اليونانية (فيلاسوفيا) أي (محب الحكمة) وفي ذلك يقول : " ولما ذهب في الاسلام قوم إلى قريب من رأيهم سمو باسمهم "(4).

ب) اصطلاحا: ورد في الموسوعة الفلسفية العربية في تعريف التصوف أنه " فلسفة حياة تهدف إلى الترفي بالنفس أخلاقيا وتحقق بوساطة رياضيات عملية معينة تؤدي إلى الشعور في بعض الأحيان بالفناء في الحقيقة الأسمى ، والعرفان بما ذوقا لا عقلا ، وثمرتها السعادة الروحية ويصعب التعبير عن حقائقها بألفاظ اللغة العادية "(5).

كما ورد في معجم المصطلحات العربية ان التصوف : هو التجرد تماما من مباهج الدنيا ومفاتها ومحاولة التخلص من الجسد ذلك الحجاب الكثيف الذي يحول دون التمتع بالنور الالاهي الفياض على الكون ، والفناء في الذات العلية فناء يقتزن بالعشق الالاهي(6).

الشعر الصوفي :

على الرغم من أن مصادر التصوف المغربي القديم فقيرة في معلوماتها المتصلة بالشعر الصوفي فإن النماذج التي وردت من هذا الشعر في " التشوف إلى رجال التصوف " وعنوان الدراية " والبستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان " وغيرها من

الكتب التي تعرضت للتصوف لتدل على أن هذا النوع من الشعر كان كثيرا في المغرب العربي خاصة في القرن السابع هجري ولعل أكبر دليل على تطور الشعر الصوفي ، ونضج موضوعاته ، وخصائصه الفنية في تلك الفترة ظهور عدد من الشعراء الصوفيين الذين أثروا الساحة الأدبية المغربية بنتائجهم الأدبي الصوفي الراقي مثل : أبي مدين شعيب التلمساني ، وعبد الرحمان الثعالبي ، وعفيف الدين التلمساني ، ومحمد بن سلمان ، وغيرهم.

*الخطاب الصوفي في الشعر المغربي المعاصر:

لا يخفى على أي باحث في الشعر العربي المعاصر تلك الصلة الموجودة بينه والتجربة الصوفية في جوانبها السلوكية والمعرفية والابداعية ، وقد سبق أن لاحظنا هذا الامتزاج بين تجربة التصوف وتجربة الشعر عند العديد من الشعراء المشاركة على رأسهم محمود حسن اسماعيل في الثلاثينيات و"أدونيس" في السبعينات ، والثمانينات من القرن العشرين ، وهذا ما يقرره النقاد بدءا " بعلي عشري " زايد الذي يعد " التراث الصوفي واحدا من اهم المصادر التراثية التي استمدت منها شاعرنا المعاصر شخصيات وأصواتا يعبر من خلالها عن أبعاد من تجربته بشتى جوانبها الفكرية والروحية".

وهذا الأمر ليس غريب لأن الصلة بين التجربة الصوفية ، والتجربة الشعرية والبياتي ، ونازك الملائكة وأخيرا " أدونيس". وقد جذبت الصوفية أيضا أنظار الشعراء المغاربة الذين تفتنوا لما تزخر به التجربة الصوفية من طاقات إبداعية فراحوا يغرفون من ينبوعها الفياض، وكان من نتائج ذلك تغير نظرتهم للشعر الذي لم يعد كما كان في السابق عالما مسطحا ، يتمكن منه القارئ دون عناء فقد غدا عالما سحرنا يمجج بالحركة والألوان ، عالما لا يعترف بالأبعاد والحدود ، إنه عالم التخطي والتجاوز والسعي وراء المطلق ، كما أنه لم يعد خطابا قائما على الأثر والانفعال(7) ، إنه في حقيقته خطاب التساؤل المعرفي والتعدد الدلالي والتنوع الرؤيوي ، وهو تبعا لذلك خطاب التأويل والتعدد الدلالي ، خطاب القراءة المفتوحة الآفاق المتعددة الأبعاد.

وقد اكتسب الخطاب الشعري المغربي هذه الصفات بفضل انفتاحه على قيم فنية جديدة حققت الكثير من التطور لهذه القصيدة ، ففي العصر الحديث بفضل اطلاع الشعراء على التراث العربي القديم وجد البعض في التصوف مرتكزا تراثيا يتناسب مع الواقع العربي الذي كان مهينا يومذاك للتأثر بالتصوف الاسلامي وبالمذاهب الغريبة التي تعطي للخيال النصيب الأوفر في تجاربها وهذا نتيجة لظروف : القلق والقهر والتي عانا منها الانسان العربي بشكل عام سواء في المغرب أو المشرق ، وقد ساهمت ظروف الاستبداد وغياب الديمقراطية في أقطار المغرب العربي في تطور الوعي الثوري لدى هذا الشاعر فغدا ينظر إلى التصوف على أنه رمز للتسامي الروحي على الآلام والهموم الفردية(8).

وعلى هذا فإن العلاقة بين التصوف والشعر علاقة واضحة إنها تنبع من السعي إلى عالم يكون أكثر كمالا من عالم الواقع.

*الخطاب الشعري في المغرب:

1-القادرية : هي أقدم الطرق الدينية على الإطلاق وبدون منازع نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني وقد أنشئت في بغداد بالعراق في القرن الثاني عشر ميلادي ، وازدهر التصوف (الدراويش) خاصة ببلاد الشام.

ولد الشيخ عبد القادر الجيلاني ونشأ وتوفي بالعراق {1087-1166م} يعتبر سلطان الأولياء ويلقبه مريدوه : قطب الأقطاب وملك البر والبحر ، عالم ورع وأستاذ فذ ترك آثارا صوفية قيمة وتعود أسس مذهبه إلى حسن البصري الذي روى عنه قوله: { أن تحترم أمك خير من آداء فريضة الحج } وذلك تبرير الفلسفة أسبقية الذكر الباطني الروحاني عن الممارسة الظاهرية للشعائر ومن ثم الربط بين هذا المذهب وفلسفة الحلاج الرامية إلى أولوية الروحانيات عن الماديات كقوله: { أن تحرم نفسك من ملذات الدنيا تقربا إلى الله كأنك أدت فريضة الحج إلى بيت الله الحرام } . ومن القصائد الشهيرة التي تغنى بها فحول شعراء الملحون ، قصيدة " يا فارس الولايا" للشيخ المنور بن يخلف المجاهري المتوفى سنة 1921م وهي مطولة تقع في 60 بيتا ومطلعها (9).

يا فارس الولايا ظنيتك جافي لله غيثي يا قطب الصـلاح
يا شجرة الدفا لك اسندت أكتافي فإلجاء جبت لك من يقررو للواح
ظهروا كرائمك يا نجل المصطفى نبغي اتودني بشرابك نرتاح

ومن المشايخ الذين نشروا الطريقة القادرية نذكر: سيدي بو مدين وسيدي عبد السلام بن مشيش.

2-الشاذلية: سيدي أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن حميم المولود سنة 1196م بسبته والمتوفى بالحميثيرة بصعيد مصر سنة 1258م.

لكن علم التوحيد أسس للطريقة التي أصبحت أم الروابط الدينية الصوفية بشمال إفريقيا ، إلى اتباعه ومن ضمنهم الشيخ الشاذلي.

يقول الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني في هذا الصدد ، والقاتل بخصوص الرؤية الربانية بنور الفكر(10):

رأيت بعين الفكر في حال حضرتي حبيبا تجلى للقلوب فحنت
سقاني بكأس من مدامة حبه فكان من الساقى خماري وسكرتي

3-الخلوتية: ظهرت بعد قرن من انشاء القادرية وتمثلت في مدرسة صوفية جديدة نالت رضا وقبول كثير من المسلمين البحث عن المجهول هو هدف اتباعها لا يشترط في الشيخ الخلوتي أن يكون ذا أصل شريف بقدر ما يشترط فيه أن يكون ناسكا متقشفا وزاهدا يبحث في العزلة والحرمان عن الفناء في حضرة الله.

-أنشأها الشيخ الفارسي " محمد الخلوتي " وطورها الشيخ عمر الخلوتي المتوفى سنة 1397م انتشرت الطريقة بسرعة مذهلة عبر آسيا وأروبا والهند وشبه الجزيرة العربية ثم دخلت إلى إفريقيا عن طريق مصر.

على العكس من القادرية التي تركز على المعاملة والتقرب روحيا وماديا فإن الخلوتية تهتم، في العزلة والخلوة ، قبل كل شيء في التأمل في عظمة الكون وخالق الكون(11) ، ولما بدأت خلال القرن السابع عشر في التفكك والتلاشي ، ظهر العالم الصوفي الأستاذ الأزهري سيدي مصطفى بن كمال الدين البكري الصديقي الخلوتي المولود في دمشق سنة 1688م المتوفى بالقاهرة سنة 1738م الذي أعطاها نفسا جديدا جعلها تدخل بقوة مذهلة إلى إفريقيا حيث أصبحت لها الكلمة الأولى.

4-الخضيرية: الخضيرية تنتسب إلى سيدنا الخضير الذي نزل في حقه قوله تعالى: { فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا. قال له موسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا } صدق الله العظيم وإلى الشيخ عبد العزيز الدباغ مؤسس المدرسة الخضيرية تعود أصول تأسيس الطريقتين المرغنية والسُنوسية (12) .

عاش في فاس خلال القرن السابع عشر إذ لم يقتنع بالمدارس السائدة آنذاك فراح يبحث عن البديل حتى تجلّى له سيدنا الخضير فمنحه سرّ (التصرف) فأنشأ المدرسة الخضيرية التي تداول على تسييرها وتطويرها والاقتداء بها عدة مشايخ إلى حوالي سنة 1835م.

*إعادة قراءة الخطاب الشعري الصوفي:

تروم هذه الدراسة إعادة قراءة الخطاب الشعري الصوفي ، سواء في ما يتعلق بجانب التنظير والنقد ، أم في ما يتعلق بجانب التجربة الشعرية ، وتحكم في هذه القراءة الجديدة موجهات نظرية ونقدية معينة.

وإن السائد في جل الدراسات النقدية ، السريعة والمستعجلة ، التي اشتغلت على الشعر الصوفي ، السعي إلى إبراز العناصر الروحية والدينية في هذه التجارب الشعرية ، متوهمة بذلك أن التجربة الشعرية الصوفية تجربة تشتغل على المعتقد الديني بالدرجة الأولى وهو وهم سقط فيه بعض الشعراء أنفسهم ، فلم يسعوا إلى تأمل وقراءة الحقائق والقضايا النظرية والنصية من داخل الخطاب الشعري ، الذي يحيل أنهم يكتبون من داخله فمسألة الغرض اليوم – توجد خارج مجال الشعرية (la poetique) كما يقول جاكسون .

إن نظرية الخطاب الشعري – التي تعد ركيزة دعامة هذا البحث المتواضع – تقدم لنا حلا ناجعا ، ومتكاملا ، لبحث هذه القضية الشائكة ، فيما تقترح علينا إبدالا لموقع النقد وزاوية القراءة به تؤسس لقطيعة معرفية ، تتجاوز السائد من التنظيرات والفرضيات وبعبارة أخرى ، لا تقيس هذه الدراسة ما هو شعري بما هو صوفي ، ولكن العكس هو الصحيح أي : إنها تجعل ما هو صوفي خاضعا لما هو شعري بالضرورة وهذا معناه أن الشاعر لا يشترط فيه أن يقترب من التجربة الصوفية ويحيها ويلتمس تفاصيلها الوجدانية والروحية والأخلاقية كما يفعل أي مريد عاد لكي يبدع نصا شعريا رائعا(13).

بل إن الشرط الأول والأخير هو تفاعل هذا الشاعر مع العالم والوجود ، ويجود بما لديه من أحاسيس ومشاعر تجاه موضوع ما أو قضية ما في مكان ما..... !

الهوامش:

- (1)-أحمد عبدي : الخطاب الشعري الصوفي المغربي في القرنين السادس والسابع الهجريين ، مذكرة تخرج أعدت لنيل شهادة الماجستير في الأدب المغربي القديم، جامعة الحاج لخضر ، باتنة، 2005م، ص: (ب).
- (2)- كرتيم شريف: لغة الخطاب الصوفي في ديوان " أهديك أحزاني " لشاعر ياسين بن عبيد" دراسة صوتية دلالية ، مذكرة تخرج أعدت لنيل شهادة الماستر في الآداب واللغة العربية ، جامعة محمد خيضر ، بسكرة ، 2015م، ص: 20.
- (3)- عبد الحميد هيمة : الخطاب الصوفي وآليات التأويل " قراءة في الشعر المغربي المعاصر" ، موفم للنشر، طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر، 2008م، ص: 61.

(4)- المرجع نفسه، ص 62.

(5)- // // ، ص 63.

(6)- // // ، ص 64.

(7)- // // ، ص 129.

- (8) - // // ، ص 163.
- (9) - // // ، ص 164.
- (10) - بودواية بلحيا: التصوف في بلاد المغرب العربي ، دار القدس للنشر والتوزيع ، ط1، 2009م، ص: 25.
- (11) - // // ، ص: 45.
- (12) - // // ، ص: 73 - 89.
- (13) - نور الدين أعراب الطريسي : الاستعارة في الخطاب الشعري الصوفي المعاصر بالمغرب، طبع printayne ، ط1، 2012 م ، ص: 06.